ونحن : لماذا لا نبيع الهواء أيضًا ؟!

أنيس منصور

التنوير

هناك نكتة يهودية : أن شابا جلس إلى رجل كبير فى السن . فى قطار متجه إلى وارسو . نظر الشاب إلى الرجل فلم يجد تشجيعا على الكلام . فاقترب منه ، وقال له : كم الساعة من فضلك ؟ قال الرجل : اخرس ! . .

فغضب الشاب قائلا : إننى أتحدث إليك بمنتهى الأدب . وأسألك عن الساعة ، فيكون ردك بهذه القسوة ؟ !

والتفت إليه الرجل قائلا : أنا أعرف نهاية هذا الحوار . سوف تسألنى عن الساعة . وأرد عليك . ونتكلم معا . ونكتشف أننا نحن الاثنين يهوديان . وأنك غريب . وسأجدنى مضطرا إلى أن أكون كريما معك . وأدعوك إلى بيتى . وفى بيتى تكتشف أن لى بنتا جميلة . وسوف تكون بينكما علاقة . وسوف تؤدى هذه العلاقة إلى الحب الذى ينتهى بالزواج . وسوف أرفض أن أزوج ابنتى من شاب لايملك ساعة . إذن فلا داعى لأن يكون بيننا حوار !

هذا بالضبط هو معنى موقف إسرائيل من كل محادثات الحكم الذاتى . فإسرائيل بجميع أحزابها لاتريد أن تكون للشعب الفلسطينى دولة مستقلة ذات سيادة . ولذلك فلا داعى للحوار ! !

والرئيس السادات قال فى الحديث التليفزيونى الخطير الموجه إلى الشعب الإسرائيلى والذى أذيع يوم الجمعة الماضى بالعربية والعبرية والإنجليزية والروسية : بل لابد أن تكون للشعب الفلسطينى دولة . وأن يجئ ذلك عن طريق مفاوضات الحكم الذاتى ، على مرحلتين : المرحلة الأولى أن يحكم الشعب الفلسطينى نفسه بنفسه . وبعد ذلك يجلس مع إسرائيل ومصر وأمريكا والأردن ، ويقرر مصيره . ومن المؤكد أن مصيره هو أن تكون له دولة ! . .

ولأن اسرائيل لاتريد أن تكون للشعب الفلسطينى دولة ، فهى ترفض أن تجيب عن السؤال : كم الساعة من فضلك ؟ . .

أما مصر فهى تريد أن تمهد الطريق . .

وإسرائيل ترفض تمهيد الطريق ، والطريق نفسه .

وهى لذلك تقف ضد العالم كله الذى يؤيد الحق الفلسطينى . ومادام حقا فهو شرعى ومشروع . .

وقال الرئيس السادات : لو كنت فى مكان السيد بيجين لأعطيت الفلسطينيين حق الحكم الذاتى دون مفاوضات مع مصر أو أمريكا أو أى أحد .

والذين يقفون إلى جانب الفلسطينيين من الأحزاب اليهودية ، يرون أن يكون للشعب الفلسطينى « كيان » – لادولة . وهذا الكيان ينضم إلى الأردن . . فى اتحاد كونفيدرالى . . أو تنضم الضفة كلها إلى الأردن فى اتحاد فيدرالى . . أو تكون الأردن كلها هى الدولة الفلسطينية ، وأن ينتقل الشعب الفلسطينى من الضفة إلى الأردن .

والرئيس السادات يرى أن نعطى « النموذج » الناجح الملموس فيقتنع الناس . .

فلم يشعر الناس – بصورة مادية – بما حققته حرب أكتوبر عندما تحطم خط بارليف فقط وتراجع الجيش الإسرائيلى إلى الوراء . . ولكن عندما انفتحت القناة ، وأعيدت الحياة إلى بورسعيد والإسماعيلية والسويس ، وعاد المهجرون ، أحس المصريون أن انجازا ماديا عظيما قد تحقق . .

وأيضا عندما انسحبت إسرائيل من العريش . . وعندما انسحبت من سانت كاترين . . ومن آبار البترول . فكل هذه انجازات ملموسة لكل الناس . أقنعت المصريين والعرب بأن السلام حقيقة مادية . .

لقد كانت سيناء هى الصورة النموذجية البارزة لنجاح السلام . . .

ولذلك اقترح الرئيس السادات أن نطبق الحكم الذاتى فى مدينة غزة . . وأن تكون مدينة غزة نموذجا صغيرا لما نريده للضفة الغربية . . ويكون هذا النموذج تجربة رائدة فى عيوبها ومزاياها لما سوف يفعله الفلسطينيون والإسرائيليون فى مستقبل الدولة الفلسطينية . .

ولكن لأن إسرائيل لاتريد « الدولة » فهى تسد الطريق إليها . وتضع فى الطريق أشياء كثيرة استفزازية : مناقشات بيزنطية حول معنى الأمن . . وبناء المستوطنات والمدارس فى الخليل ، وإحياء قرار القدس الموحدة الإسرائيلية . . واللجنة الدولية للإشراف على المراحل الأخرى للانسحاب من سيناء . .

ولذلك أوضح الرئيس السادات فى لقائه الأخير بالسفير الإسرائيلى د . بن أليسار : أن هناك فرقا كبيرا بين مشروع القرار الذى تقدمت به السيدة جيئولا كوهين بشأن إعلان القدس مدينة موحدة لإسرائيل ، وإحالة القرار بإجماع الكنيست إلى اللجان المختصة ، وبين قرار مجلس الشعب المصرى بأن القدس الشرقية جزء من الضفة الغربية ! . .

فقد كان السيد مناحم بيجين قد بعث فى رسالة إلى الرئيس السادات يشرح له قرار توحيد القدس ، وأن هذا القرار لن يكون قانونا . ولكنها مناورة سياسية لايستطيع أحد أن يتجاهلها . .

ثم بعث السيد بيجين فى رسالة إلى كارتر يشرح هذا القرار بصورة أخرى ، فقال : إن قرار الكنيست رد على قرار مجلس الشعب المصرى ! .

ولكن الفرق بين القرارين كبير : فالقرار الإسرائيلى يمكن تنفيذه ، لأن إسرائيل ماتزال تحتل القدس . ولكن القرار المصرى تصميم وأمل . .

ولذلك فلن نتوقع إنجازا كبيرا فى مفاوضات الحكم الذاتى فى واشنطون ، أو بعد ذلك فى أية عاصمة أخرى . ولكن لابد من الاستمرار فى المفاوضات . .

وإن كان يروى عن السيد مناحم بيجين أنه أعلن أخيراً : أنه سوف يفوز فى الانتخابات القادمة ، وأنه هو الذى سوف يعطى للشعب الفلسطينى الحكم الذاتى . وبذلك يكون – فى التاريخ – له حجم بن جوريون وأشكول ومائير معا . .

وأنه بذلك سوف يجعل الموقف صعبا على زعماء المعارضة : السادة بيريز ورابين وبارليف أو نافون . .

وعندما أعلن الرئيس السادات للنائب أورى أفنيرى رئيس تحرير مجلة « هاعولام هزه » أنه على استعداد لأن يذهب إلى الكنيست مرة أخرى ، ويعرض القضية الفلسطينية من وجهة النظر المصرية والعربية والعالمية ، كان عن اقتناع بضرورة أن تحرك الموقف الذى تجمد بين كل الأطراف .

وليس لدى الرئيس السادات مانع من دعوة السيد بيجين ليتحدث إلى مجلس الشعب المصرى ، تماما كما تحدث الرئيس السادات إلى الشعب الاسرائيلى أكثر من مرة . لولا أن الرئيس السادات يخشى على السيد بيجين أن يفقد شعبيته فى بلده وفى مصر ، وأن يخسر ما كسبه بسبب الوفاء بالتزامات معاهدة السلام . . لأن السيد بيجين سوف يتحدث عن نفس القضايا التى تثير غضب الناس واستفزازهم ، كحديثه عن « يهودا والسامرة » والحق الإلهى فى امتلاك هذه الأرض وما ومن عليها . . وعن بناء المستوطنات والمدارس فى الخليل . . الخ

وكان السيد بيجين قد أعلن لمستر كالاهان رئيس وزراء بريطانيا : أنه مستعد أن يتفاوض فى كل شئ مع مصر ، إلا تدمير اسرائيل ! . .

وقد سعد الرئيس السادات بهذه العبارة عندما نقلها اليه مستر كالاهان فى أسوان بعد المبادرة بشهر واحد !

ولكن « تدمير » إسرائيل مثل « أمن » إسرائيل له ألوف المعانى . . ولذلك فألوف المعانى لايقبل السيد بيجين مناقشتها أو التفاوض بشأنها !

❑❑❑

ولا تزال الشكوى والتشكك من أهم معالم التفكير الاسرائيلى . .

وأولى شكاواهم أن المصريين لا يتجاوبون بنفس السرعة للتطبيع . . وهى ليست شكوى ، إنما هى تقرير لفارق فى السلوك العام بين الشعبين . فالسلوك الإسرائيلى سريع قلق . . وفى حالة دفع واندفاع واستعجال دائم . . ولسنا كذلك . وليست لدينا القدرة على تغييرهم ، ولالديهم على تغييرنا .

فاليهود عندهم إحساس بأنهم يلعبون فى الوقت الضائع . فقد ضاعت منهم ألوف السنين . وليس لدينا هذا الاحساس . . فالعقلية اليهودية لاتطيق أن ترى الوقت والماء والهواء يضيع دون ثمن أو فائدة . .

ومازلت أذكر دهشة أحد الاسرائيليين عندما نظر إلى النيل يتحرك ببطء ووفرة متجهاً إلى البحر ، فتساءل : كل هذه المياه تضيع فى البحر ؟ . .

قلت : نعم .

قال : ولاتستوقفونها فى الطريق لأى سبب ؟

قلت : لا .

قال : الآن اكتشفت شيئا خطيرا . . لقد ارتكب سيدنا موسى غلطتين فادحتين : الغلطة الأولى أنه خرج من مصر ، والغلطة الثانية أنه عندما ترك مصر لم يذهب إلى السعودية ! . .

والسفير الإسرائيلى يشبه « روبنسون كروزو » ؛ فهو وحده فى جزيرة مجهولة ، وكل شئ يعمله لأول مرة : لأول مرة سفير بلاده فى مصر . لأول مرة يمشى فى الشارع . . لأول مرة يأكل هنا ويشرب هناك . . ويشعر بالوحدة . . فلاتزال الأبواب المصرية مغلقة . .

وقد شكا ذلك إلى الرئيس السادات . .

وكان رد الرئيس السادات : ولكن ٩٩ ٪ من الشعب المصرى يؤيدون السلام . . كما أن ٩٠ ٪ من الشعب الإسرائيلى مع السلام . ولكن ما تعلنه حكومة السيد بيجن من حين إلى حين يضايق الناس ويصدمهم ويصدهم ويجعلهم يغلقون الأبواب والنوافذ .

ومنذ أيام رددت حرم السفير الإسرائيلى السيدة نيتسا بن أليسار نفس الشكوى ، فكان رد السيدة جيهان السادات أيضا : انتم السبب . . فالقرارات الاستفزازية التى تصدر فى إسرائيل تجعل الناس يشكون فى إيمانكم بالسلام ! . .

ثم روى السفير الإسرائيلى للرئيس السادات أن سيدة مصرية صارحته برفضها تأجير شقتها له . . وقد اندهش السفير الاسرائيلى عندما قال له الرئيس السادات : أعرف القصة . . أعرف أنها قالت لك إننى أعطيت صوتى فى الاستفتاء على السلام . وأنا مع السلام مائة فى المائة . ولكن ما يعلنه وما يفعله السيد بيجين يجعلنى أرفض إعطاءك هذه الشقة ! . .

وقد تعرض السفير الإسرائيلى وزوجته لمثل هذه المواقف كثيرا فى الزمالك وجاردن سيتى . .

ثم أشار عليه الرئيس السادات أن يختار إحدى الشقق التى تملكها شركات التأمين أو القطاع العام . .

د . محمود محفوظ
لقاء سرى مع علماء اسرائيل

د . حسين فوزى
أول دكتوراه فخرية من اسرائيل

كالاهان . .
عبارة اسعدت الرئيس السادات

أوفيرا نافون
بحثت عن زميلتها زينب اليل

وكانت الشكوى من أن عددا كبيرا من الصحفيين الإسرائيليين قد جاءوا إلى مصر وأقاموا فيها ، ونقلوا كل شيء عن مصر إلى إسرائيل . بينما لم يذهب أحد من المصريين إلى إسرائيل .

وقد وافق الرئيس السادات على أن يذهب وفد صحفى يمثل كل الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون . وسوف يسافرون عندما تحدد لهم الحكومة الإسرائيلية الموعد المناسب . .

وكانت السيدة ادناشير من حزب المابام ، وهى مصرية الأصل ، قد جاءت إلى مصر مع أربعة أعضاء آخرين . وقابلوا الرئيس السادات . وطلبوا إيفاد ممثلين للحزب الوطنى الديموقراطى . وسوف يسافر وفد من الحزب الوطنى إلى اسرائيل . ولما نشرت الصحف الإسرائيلية موافقة الرئيس السادات على زيارة برلمانيين مصريين لحزب المابام تساءل كثيرون : ولماذا تلتقى مصر بأحزاب المعارضة ولا تلتقى بأحزاب الحكومة ؟

ولذلك قرر الرئيس السادات أن يكون اللقاء مع كل الأحزاب السياسية والهيئات الدينية المعتدلة والمتطرفة – لأنه لابد أن نتعارف لنعرف ، ونتفاهم لنفهم . وهذا هو التطبيع . .

ولكن الإسرائيليين يرون أنهم أسرع إلى التطبيع من المصريين . فلا تبادل تجاريا ولا تبادل ثقافيا . . وينسون أن الوقت الذى مضى على التطبيع لم يتجاوز بعد أربعة شهور . وهذا وقت لا يكفى لمحو تراكمات عشرات السنين من العداوة وسوء الظن والرغبة فى الانتقام واستعادة الكرامة العربية . .

فلا تبادل بين أساتذة الجامعات ولا الادباء ولا الأطباء . .

فمفكر مصرى واحد هو د . حسين فوزى هو الذى سافر وحاضر فى إسرائيل ، ومنحوه الدكتوراه الفخرية . .

بينما جاء إلى مصر : الأديبة يائيل ديان والكاتبان آموس ايلون وبارتوف والمستشرق د . مناحم ميلسون الذى أصدر كتاباً عن الأدب المصرى المعاصر . . وكاتب القصة موريس شماس الشهير بأبو فريد الذى أصدر مجموعة باسم « الشيخ شبتاى » . .

وطبيب مصرى واحد هو د . محمود بدر رائد جراحة المسالك البولية هو الذى ذهب وحاضر عن عظمة الطب الفرعونى والعربى . وعاقبته نقابة الأطباء بتجاهله فى يوم الطبيب . وطلبوا النياشين لتلامذته وزملائه . ولذلك منحه الرئيس السادات وساما ، واحتفلت به كلية الطب فى الأسبوع الماضى . ولم يشارك فى الاحتفال كل الذين تخصصوا فى علمه وفنه ! . .

وفى مصر تاجر واحد شاب هو كامل الكفراوى (خريج قسم الفلسفة جامعة عين شمس) يستورد الكتاكيت الإسرائيلية .

ومنذ يومين وصل ربع مليون كتكوت على نفس الطائرة التى أقلت السفير المصرى فى إسرائيل سعد مرتضى ، الذى جاء إلى القاهرة ليفض نزاعا بينه وبين زوجته السابقة السيدة ماجدة نافع التى تطالبه بتعويض خمسين ألف جنيه ونفقة شهرية ألف جنيه – فقد جاء طلاقها السريع صدمة ألحقت بها أضرارا مادية ، كما تقول . .

وكان هذا النبأ قنبلة فى إسرائيل . فقد قال لى وزير إسرائيلى ضاحكا : لم تحقد إسرائيل على رجل كما حقدت على السفير المصرى لأنه استطاع أن يفلت من الزواج بعد اسبوع واحد ! فلماذا لا يبدأ الرئيس السادات « تطبيع » العلاقات من هذه النقطة بالذات ؟ ؟

أما البيرة والبيض الموجود فى الأسواق ، فهى جميعا مهربة من إسرائيل عن طريق العريش ! . .

كما أن بعض الفنادق المصرية قد نشرت إعلانات فى الصحف الإسرائيلية . ويتساءلون : ولماذا لا تنشر المؤسسات الإسرائيلية إعلانات فى الصحف المصرية ؟ . .

وقد وافق الرئيس السادات على أن تشترك مصر فى مؤتمر كليات الطب الذى سوف يعقد فى إسرائيل . بشرط ألا تشترك فيه جنوب أفريقيا – لأن موقف مصر من جنوب أفريقيا معروف . .

ومنذ أيام قال لى د . يوسف هداس وزير إسرائيل المفوض فى القاهرة ، الذى عاد نهائيا إلى وزارة الخارجية : إن أهم ما اهتدى إليه فى مصر هو الشعب المصرى نفسه . . إنه شعب طيب يحب السلام حقا . . وأنا شعرت بالأمان فى كل مكان . . وعندما كنت مع موشى ديان فى الأقصر ، قال لى موشى ديان : إن الشعب الذى استطاع أن يبنى هذه الروائع الأثرية قادر على أن يفعل نفس الشيء فى المستقبل . . إنه نفس الشعب المستقر المستمر . .

ولا يزال اليهود المصريون يجيئون إلى مصر يبحثون عن بيوتهم القديمة وأصدقائهم ومقابر آبائهم وأجدادهم . .

لقد جاء وزير الأوقاف الإسرائيلى أبو حصيرة ليزور قبر جده « أبو حصيرة » فى محافظة البحيرة . .

سمير الاسكندرانى
أبوه صاحب ولحة الملوخية

د . مناحم ميلسون
ترجم قصصاً مصرية حديثة

كتكوت
ملايين تصل بانتظام

د . محمود بدر
وملوخية من نوع آخر

حتى السيدة اوفيرا نافون زوجة رئيس دولة اسرائيل راحت تبحث عن فتاة مصرية اسمها زينب البيلى كانت قد التقت بها فى سويسرا اثناء مسابقة « الفتاة المثالية » . وكانت كل منهما تمثل بلدها . وعثرت عليها ودعتها لزيارة اسرائيل . . وزينب البيلى زوجة لصحفى سويسرى اسمه أحمد هوبر ويعيش فى مدينة برند . .

وذهب السيد سكاكى من كبار الجالية اليهودية فى مصر ، يشكو إلى السيدة جيهان السادات أن أحد المرشحين لانتخابات مجلس الشعب قد سرق الرخام والأبواب الحديدية من مقبرة أسرته . .

ويهود آخرون جاءوا ينقبون فى أرض المنصورة عن قبور أجدادهم . هؤلاء اليهود هم من أمريكا والبرازيل والمغرب . . ولديهم مشروع إقامة ضريح كبير إذا اهتدوا إلى جثمان الفقيد . .

وكان الرئيس الإسرائيلى إسحاق نافون قد استأذن الرئيس السادات فى أن يجىء بعض علماء التوراة فى إسرائيل إلى مصر ، لدراسة المخطوطات العبرية فى معبد بن عزرا بمصر القديمة . . وجاءوا ، ورأوا نسخة نادرة من التوراة . . ووجدوا فى معبد آخر مخطوطات نادرة « لجماعة القرائين » المصريين . .

وجاء أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى ، وقابل الرئيس السادات ، واستأذنه فى « ترميم » نسخة نادرة من التوراة ، ونقلها إلى فينا ، على ان يعيدها إلى مكانها فى القاهرة . .

والتقى سرا فى فندق ووترجيت بواشنطن عدد من العلماء المصريين باساتذة ومفكرين اسرائيليين . أما المصريون فهم الدكاترة : محمود محفوظ وعصام الدين جلال ومحمد شعلان وعادل صادق وعبد العظيم رمضان . .

وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة . ولا يزال الالحاح الى لقاء آخر مستمراً . ولكن أحداً هنا لا يرد . .

والإسرائيليون لهم ملاحظة واحدة : أنهم يتحركون ناحيتنا ، وأننا واقفون نتفرج عليهم . ولا نذهب إلى أبعد من ذلك . .

ويوم نشرت أننى وجدتهم فى إسرائيل يبيعون « علبا » من الصفيح الفارغة مكتوبا عليها : « هذه العلبة بها هواء من الأراضى المقدسة » ضحكنا على اليهود الذين يبيعون الهواء ! . .

ولكن يهوديا مصريا هو فكتور نحمياس يعمل مذيعاً فى التليفزيون الإسرائيلى ، سألنى : وماذا ستعملون ؟ فسألته : فى أى شىء ؟ . .

قال : فى علب الهواء هذه . .

قلت : لا شىء . . لقد ضحكنا ! . . .

وكان رده : هذا هو الفارق بيننا وبينكم . . أما أنا فعندى فكرة أستطيع أن أنافس بها ذلك الإسرائيلى الذى يبيع الهواء . . فسوف أصنع علبة مثلها تماما ، وأكتب عليها : هذه العلبة بها هواء من مقبرة توت عنخ آمون ! . .

أى أنه من الممكن أن نفعل شيئا . بل من الضرورى أن نفعل شيئاً قبل فوات الأوان . . أن نبيع الهواء . . أن نبيع الماء . . أن نبيع ونشترى ونتاجر ونكسب . . ولكن المصريين مايزالون واقفين ينظرون . . أو يتفرجون أو يتشككون .

وإذا كانت مبادرة السلام قد قضت على جانب كبير من الشك ، فإن الكثير ما يزال بيننا وبينهم . ثم إن هذا الكثير يصبح كثيرا جدا كلما تعنتت حكومة إسرائيل فى قضية القضايا : الدولة الفلسطينية التى يؤيدها العالم كله ! . .

❀❀❀

وفى الأسبوع الماضى قلت إن « الملل » الذى يسبق ويجىء مع مفاوضات الحكم الذاتى ، جعل العيون والآذان تتجه إلى شىء جديد . . أى شىء ينعش النفس ويهز أوتارا أخرى فى أعماقنا . .

ففى إسرائيل التف الشعب كله حول طفل خطفوه ولم يعيدوه . مع أن الأب دفع الفدية مليونين من الليرات . وفشل البوليس فى اقتفاء أثر الخاطفين . . والجيش عاجز أيضا .

وجاء حادث آخر من مصر . الحادث ليس كبيرا . وإنما حاجة الناس إلى شىء يجدد اهتمامهم أو يثيرهم أو يضحكهم هى التى جعلته كبيراً مثيراً . . فقد اتصل مواطن مصرى بالسفير الإسرائيلى ، وتحدث إليه بالإنجليزية وبعض الكلمات العبرية . وقال له : أنت تشكو من الوحدة . إننى أدعوك أنت والسفارة الإسرائيلية إلى غداء مصرى فى بيتى فى الحلمية الجديدة . .

ووافق السفير ، وذهب سبعة من أعضاء السفارة إلى بيت الحاج فؤاد الإسكندرانى تاجر الأثاثات المعروف ووالد المطرب سمير الإسكندرانى . .

وظهر هذا « الحادث » فى كل ورقة مطبوعة فى إسرائيل ، وفى كل نشرات الإذاعة والتليفزيون : أن سفير إسرائيل ذهب ورآه أناس كثيرون وصافحوه وأكل الملوخية والبامية والمكرونة ، واتفق مع المطرب سمير الاسكندرانى على إحياء حفلات شعبية يشترك فيها مطربون من إسرائيل أيضا . .

وخبر آخر : ان الملوخية التى أكلها فى الغداء عند الحاج فؤاد تختلف عن الملوخية التى أكلها فى العشاء عند د . محمود بدر ! !

❀❀❀

أما مفاوضات الحكم الذاتى وما سوف تسفر عنه ، فأرجو أن تعود إلى النكتة اليهودية فى أول هذا المقال . .

وهذه المفاوضات سوف تحتاج إلى ما يجدد الاهتمام بها : مثل أحداث فردية مثيرة فى إسرائيل أو فى مصر حتى نهاية العام .

وعند نهاية العام تنبأ الرئيس السادات فى حديثه إلى التليفزيون الإسرائيلى ، بأن تقع أحداث خطيرة تغير مسيرة السلام فى الشرق الأوسط .

ولم يشأ الرئيس السادات أن يحدد مكان هذه الأحداث : فى إسرائيل أو فى العالم العربى . .